تحليلات وآراء

المساءلة الفكرية لثنائية "الشرف والعلف" و تفكيك اغتراب الإنسان المعاصر من الكينونة إلى الاستهلاك

بقلـــم

م.د. سيـف ضيـاء

عضو الهيئة الادارية للجمعية العراقية للعلوم السياسية

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

2026

تأسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية عام 2008 بمدينة بابل (الحلة)، وحصل على شهادة التسجيل من دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة 1Z71874 بتاريخ 2012/12/25، بوصفه مركزا علميا بحثيا يهتم بدراسة الموضوعات السياسية والمجتمعية، فضلاً عن الاهتمام بالقضايا والظواهر الراهنة والمحتملة في الشأن المحلي والإقليمي والدولي، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

- لا يجوز إعادة نشر أي من هذه الأوراق البحثية الا بموافقة المركز، وبالإمكان الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- لا تعبر الآراء الواردة في الورقة البحثية عن الاتجاهات التي يتبناها المركز وانما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

للتواصل

العراق - بغداد - الكرادة

+964 7810234002

hcrsiraq@yahoo.com

www.hcrsiraq.net

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

لم تكن ثنائية "الشرف والعلف" مجرد مقابلة لغوية لافتة، أو تركيباً بلاغياً يستند إلى التنافر الصوتي بين كلمتين؛ بل هي في عمقها مدخل فلسفي حادّ لقراءة واحدة من أعمق أزمات الإنسان المعاصر: أزمة الانتقال من الوجود بوصفه معنى ومسؤولية وكرامة، إلى الحياة بوصفها إشباعاً مادياً واستهلاكاً دائماً وامتثالاً ناعماً؛ إنها ثنائية تكشف التحول الكبير في بنية الوعي الحديث، إذ لم يعد الإنسان يُقاس بما يحمله من قيم، أو بما ينجزه من أفعال أخلاقية، أو بما يقدمه من معنى يتجاوز ذاته، بل صار يُعرف غالباً بما يملك، وما يستهلك، وما يستطيع الوصول إليه من متع سريعة، ورفاهيات مؤقتة، وأمان بيولوجي منزوع من المغامرة والسمو؛ بهذا المعنى لا تشير كلمة "الشرف" هنا إلى معناها الاجتماعي الضيق، ولا إلى خطاب المديح الأخلاقي التقليدي، بل إلى رأسمال وجودي عميق: شرف الموقف، وشرف الحرية، وشرف المسؤولية، وشرف مقاومة الانحطاط حين يتحول الإنسان إلى تابع للسوق، أو أسير للراحة، أو كائن مُدار بالرغبات المصطنعة؛ أما "العلف"، فليس المقصود به الغذاء بمعناه الحرفي، بل ذلك النمط من الحياة الذي يختزل الكائن الإنساني في حاجاته البيولوجية والاستهلاكية، ويحوّله من ذات حرة إلى موضوع قابل للتوجيه والتدجين والإشباع المنظم؛ ومن هنا، فإن المساءلة الفكرية لهذه الثنائية ليست حنيناً رومانسياً إلى ماض متخيل، ولا رفضاً سطحياً للتقدم المادي، بل محاولة لتفكيك السؤال الأكثر إلحاحاً في عصرنا: **كيف وصل الإنسان، وهو يملك من أدوات القوة والمعرفة والتقنية ما لم يملكه من قبل، إلى هذا القدر من الهشاشة الوجودية، والفراغ الداخلي، والاغتراب عن ذاته؟ وكما يلي:**

1. نيتشه و "الإنسان الأخير" ... حين ينتصر العلف على المغامرة

في قلب المشروع الفلسفي لفريدريك نيتشه يظهر مفهوم "الإنسان الأخير" بوصفه واحداً من أكثر المفاهيم قدرة على وصف الإنسان المستهلك في العالم الحديث؛ ففي مقدمة كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، يعرض نيتشه صورة الإنسان الأخير بوصفه الكائن الذي فقد القدرة على المخاطرة، وتخلّى عن الاندفاع نحو العلو، واختار الراحة الصغيرة بديلاً عن الأسئلة الكبرى والمعاني المتجاوزة؛ إذ يقول زرادشت عن هذا النمط إن الأرض قد صغرت، وإن الإنسان الأخير يجعل كل شيء صغيراً، لأنه يريد حياة آمنة وخالية من التوتر والمغامرة والقلق الخلاق[1]، فالإنسان الأخير ليس شريراً بالمعنى الأخلاقي المباشر، ولا جاهلاً بالضرورة، بل هو كائن فقد طاقة الاندفاع نحو المعالي، وتخلّى عن الأسئلة الكبرى، واختار العيش في منطقة الراحة الدائمة، إنه الإنسان الذي لم يعد يريد أن يتجاوز ذاته، ولا أن يغامر من أجل قيمة، ولا أن يدفع ثمن الحرية، بل يريد حياة آمنة، مسطحة، ناعمة، خالية من الألم والمخاطرة والقلق، يريد أن يأكل جيداً، وينام جيداً، ويتسلى كثيراً، ويتجنب كل ما يوقظ فيه شعور المسؤولية أو يضعه أمام امتحان أخلاقي؛ وفي هذا السياق يصبح الإنسان الأخير عند نيتشه النموذج الفلسفي الأوضح لما يمكن تسميته "إنسان العلف": الإنسان الذي يبادل شرف التوتر الخلاق براحة القطيع، ويستعيض عن إرادة المعنى بثقافة الإشباع، ويهرب من قلق الحرية إلى دفء الامتثال، إنه لا يريد أن يكون عظيماً، بل يريد فقط

---

[1] Friedrich Nietzsche: Thus Spoke Zarathustra, translated by Adrian Del Caro (UK: Cambridge University Press, 2006), pp. 9–11.

أن يكون آمناً؛ لا يبحث عن الحقيقة إن كانت مكلفة، بل عن الطمأنينة إن كانت مريحة؛ لا يعنيه أن يكون حراً بقدر ما يعنيه ألا يُزعج.

هنا تتجلى المأساة: فحين يتخلى الإنسان عن شرف المواجهة، لا يصبح أكثر سلاماً بالضرورة، بل يصبح أكثر قابلية للتدجين، وحين يهرب من عبء الحرية، لا يدخل الجنة، بل يدخل الحظيرة الناعمة التي تُشبع جسده وتُطفئ روحه.

2. باومان والحداثة السائلة... تفكك المعنى في مجتمع الاستهلاك

إذا كان نيتشه قد قدّم الإنذار الفلسفي المبكر، فإن زيجمونت باومان قد شرح البنية الاجتماعية التي جعلت هذا الإنذار واقعاً يومياً، ففي كتابه "الحداثة السائلة"، يصف باومان عالماً لم تعد فيه العلاقات، والهويات، والمؤسسات، والالتزامات، قادرة على الاحتفاظ بصلابتها السابقة، فالحداثة، في صورتها السائلة، تفكك الأشكال الصلبة للانتماء والعمل والجماعة، وتجعل الفرد مطالباً بإعادة تشكيل نفسه باستمرار داخل عالم سريع التغير[1]؛ إذ كانت الحداثة الصلبة تقوم، رغم تناقضاتها، على فكرة البناء: المصنع، الحزب، النقابة، الأسرة الممتدة، المشروع الوطني، التضامن الطبقي، والمسؤولية الجماعية؛ أما الحداثة السائلة فقد نقلت الإنسان من فضاء الإنتاج المشترك إلى فضاء الاستهلاك المنفرد، من الجماعة التي تبني إلى الحشود التي تشتري، من الهوية المؤسسة على الدور والقيمة والموقف، إلى الهوية المؤسسة على القدرة الشرائية والصورة المعروضة؛ وفي هذا السياق.... يذهب باومان إلى أن المجتمع الحديث أخذ يتحول من مجتمع منتجين إلى مجتمع مستهلكين، حيث لم تعد قيمة الإنسان تُقاس أساساً بقدرته على الإسهام في مشروع اجتماعي طويل المدى، بل بقدرته على الاستجابة المستمرة لإغراءات السوق وتحديث صورته الاستهلاكية[2]، وفي هذا العالم السائل، لا يعود الإنسان ما يصنعه أو ما يؤمن به، بل ما يستهلكه وما يعرضه، تتحول الذات إلى واجهة، والحياة إلى سوق، والعلاقات إلى عقود مؤقتة، والنجاح إلى قابلية مستمرة للتسويق، **لا يُسأل الإنسان: من أنت؟ بل: ماذا تملك؟ ماذا ترتدي؟ أين تسافر؟ ما الذي تستطيع شراءه؟ وما الصورة التي تستطيع إنتاجها عن نفسك؟**

وهكذا يتراجع "الشرف" بوصفه التزاماً ومعنى وموقفاً، ليحل محله "العلف" بوصفه تدفقاً دائماً للسلع والصور والرغبات العابرة، لا يعود الإنسان ذاتاً فاعلة في التاريخ، بل مستهلكاً متحركاً داخل ممرات السوق؛ يظن أنه يختار بحرية، بينما تُصنع خياراته مسبقاً عبر الإعلان، والخوارزميات، وثقافة الندرة المصطنعة، وهندسة الرغبات.

---

[1] Zygmunt Bauman, Liquid Modernity (UK: Polity Press, 2000), pp. 1–15.

[2] Ibid., pp. 76–90.

3. ماركس ولوكاتش... الاغتراب والتشيؤ حين يتحول الإنسان إلى سلعة

لا يمكن تفكيك ثنائية "الشرف والعلف" من دون العودة إلى كارل ماركس، خصوصاً في تحليله للاغتراب في المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام 1844، فالإنسان في الرؤية الماركسية، لا يغترب فقط عندما يُستغل اقتصادياً، بل عندما يفقد علاقته الحية بما ينتج، وبذاته، وبالآخرين، وبالعالم من حوله، إذ يوضح ماركس أن العامل في ظل علاقات الإنتاج الرأسمالية قد يصبح غريباً عن نتاج عمله، وعن فعل العمل نفسه، وعن طبيعته الإنسانية، وعن الإنسان الآخر[1]، وفي العمل الحر والخلاق، يكتشف الإنسان شيئاً من شرفه الوجودي؛ لأنه يحوّل جهده إلى معنى، ويمنح المادة شيئاً من روحه، ويرى في إنتاجه امتداداً لذاته، أما حين يتحول العمل إلى مجرد وسيلة للبقاء، وإلى زمن مفرغ من المعنى، وإلى وظيفة قسرية هدفها الأجر فقط، فإن الإنسان لا ينتج ذاته، بل يستنزفها يعمل ليعيش، ثم يعيش ليستعيد قدرته على العمل، داخل دائرة مغلقة تجعل الحياة نفسها ملحقة بآلة الإنتاج والاستهلاك، وهنا يصبح "العلف" هو الأجر الذي يضمن استمرار الجسد داخل الدورة الاقتصادية، لا بوصفه كائناً حراً، بل بوصفه طاقة عمل قابلة للاستبدال، ويتحول الإنسان من فاعل إلى سلعة، ومن ذات إلى رقم، ومن كائن يحمل معنى إلى وحدة إنتاج واستهلاك في حسابات السوق؛ ويكتمل هذا التحليل مع جورج لوكاتش في مفهوم"التشيؤ"، إذ يبيّن أن منطق السلعة لا يبقى محصوراً في الاقتصاد، بل يتمدد ليطبع الوعي والعلاقات الاجتماعية نفسها، حتى يبدو العالم الإنساني كما لو أنه عالم أشياء منفصلة، قابلة للحساب والتبادل والسيطرة[2]، والأخطر من ذلك أن التشيؤ لا يظل محصوراً في المصنع أو المؤسسة، بل يمتد إلى العلاقات الإنسانية نفسها؛ إذ تصبح الصداقة شبكة منفعة، والحب استثماراً عاطفياً، والمعرفة مؤهلاً تسويقياً، والوقت مورداً اقتصادياً، والجسد رأس مال بصرياً، عند هذه النقطة، لا يعود السوق مكاناً نذهب إليه، بل يصبح منطقاً يسكن داخلنا.

4. ماركوزه والإنسان ذو البعد الواحد... رفاهية تُنتج الطاعة

يذهب هربرت ماركوزه خطوة أبعد في نقد المجتمع الصناعي المتقدم، حين يتحدث في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" عن قدرة المجتمعات الصناعية الحديثة على إدماج الإنسان داخل منظومتها لا عبر القمع المباشر وحده، بل عبر إنتاج الحاجات الزائفة، وتوجيه الرغبات، وتقديم الرفاهية بوصفها بديلاً عن الحرية النقدية[3]، إذ إن خطورة النظام الاستهلاكي الحديث لا تكمن فقط في أنه يمنع الإنسان من التفكير ، بل في أنه يجعله يظن أن التفكير لم يعد ضرورياً، يمنحه سلسلة لا تنتهي من السلع والخدمات والصور والمتع، حتى يتوهم أنه حر لأنه يختار

---

[1] Karl Marx: Economic and Philosophic Manuscripts of 1844, in: Early Writings, translated by Rodney Livingstone and Gregor Benton (London, UK: Penguin Books, 1992), pp. 322–334.

[2] Georg Lukács: History and Class Consciousness: Studies in Marxist Dialectics, translated by Rodney Livingstone (USA: MIT Press), pp. 83–110.

[3] Herbert Marcuse: The One Dimensions: Studies in the Ideology of the Advanced Industrial Society, (Boston, USA Publishing House: Beacon Press), pp. 1–18.

بين منتجات كثيرة، بينما (حريته العميقة حرية السؤال والرفض والتجاوز تكون قد أُفرغت من مضمونها)؛ وهنا يصبح "العلف" أكثر تطوراً وتعقيداً، إذ لم يعد مجرد إشباع مادي بدائي، بل صار منظومة كاملة من الرفاهيات والرموز والرغبات المصممة بعناية، إنسان العلف المعاصر لا يُساق بالعصا، بل بالإعلانات؛ لا يُحبس في الزنزانة، بل في الشاشة؛ لا يُمنع من الكلام، بل يُغرق في ضجيج لا يترك له فرصة للتفكير؛ وفي المقابل يصبح "الشرف" فعلاً نقدياً: أن تحتفظ بقدرتك على السؤال وسط فائض الإجابات الجاهزة،أن تميّز حاجاتك الحقيقية من حاجات صُنعت لك، أن ترفض أن تكون قيمتك مشتقة من قدرتك على الاستهلاك، وأن تدرك أن الرفاهية، إن لم تُصاحبها حرية داخلية، قد تتحول إلى شكل راقٍ من أشكال العبودية.

5. إريك فروم... من التملك إلى الكينونة

تبلغ هذه المساءلة ذروتها مع إريك فروم في ثنائيته الشهيرة: "التملك أم الكينونة؟" فقد أدرك فروم أن الأزمة الحديثة لا تتعلق فقط بتوزيع الثروة أو شكل النظام الاقتصادي، بل بنمط الوجود نفسه، هل يعيش الإنسان لكي يملك، أم يملك لكي يعيش؟ هل يعرّف ذاته بما يراكمه من أشياء، أم بما يحققه من نضج ووعي ومحبة ومسؤولية؟[1]، حيث ثقافة "العلف" هي الوجه الأكثر وضوحاً لنمط التملك، إنها تقول للإنسان: أنت ما تملك، وما تستهلك، وما تستطيع أن تعرضه أمام الآخرين؛ أما ثقافة "الشرف" فهي أقرب إلى نمط الكينونة؛ حيث لا يستمد الإنسان قيمته من تراكم الأشياء، بل من عمق وجوده، وصدق مواقفه، ونبل أفعاله، وقدرته على أن يكون حراً حتى في مواجهة الإغراء؛ وإن الفرق بين التملك والكينونة هو الفرق بين حياة تُقاس بما يُضاف إلى الخارج، وحياة تُقاس بما ينضج في الداخل، الأول يراكم الأشياء حول الإنسان، والثاني يبني الإنسان نفسه، الأول يمنحه شعوراً مؤقتاً بالامتلاء، والثاني يمنحه معنى لا ينتهي بانتهاء اللذة أو زوال السلعة.

ومن هنا يصبح استرداد الشرف الوجودي ليس دعوة إلى الفقر، ولا رفضاً للعالم المادي، ولا تمجيداً للحرمان، بل سعياً إلى إعادة ترتيب العلاقة بين الإنسان والأشياء؛ فالمشكلة ليست في أن يستهلك الإنسان، بل في أن يتحول الاستهلاك إلى تعريفه الوحيد، وليست المشكلة في أن يطلب الراحة، بل في أن يبيع حريته من أجلها، وليست المشكلة في أن يبحث عن الأمن، بل في أن يتنازل عن كرامته لقاء وهم الاستقرار.

6. الإنسان الرقمي... العلف في زمن الخوارزميات

ما يجعل هذه الثنائية أكثر راهنية اليوم هو أن "العلف" لم يعد مادياً فحسب، بل صار رقمياً أيضاً، فالإنسان المعاصر لا يستهلك الطعام والسلع والخدمات فقط، بل يستهلك الصور، والمقاطع، والانفعالات، والفضائح، والترندات، والاعترافات السريعة، والإعجابات العابرة، وقد بيّن غي ديبور، في كتابه "مجتمع الاستعراض"، أن

---

[1] Erich Fromm: To Have or To Be? (New York, USA, Publisher: Harper & Row, pp. 15–36).

المجتمعات الحديثة لا تكتفي بإنتاج السلع، بل تنتج عالماً من الصور والتمثيلات، حيث تصبح العلاقة بين البشر موسَّطة بالصور، ويتحول الوجود الاجتماعي ذاته إلى مشهد معروض[1]، كما يذهب جان بودريار، في تحليله للمجتمع الاستهلاكي، إلى أن الاستهلاك لم يعد مرتبطاً بالحاجة المادية وحدها، بل صار نظاماً للرموز والدلالات، يستهلك فيه الإنسان المعنى والمكانة والصورة بقدر ما يستهلك السلعة ذاتها[2]، لقد انتقلت الحظيرة الحديثة من الجغرافيا إلى الخوارزمية، صار الإنسان محاطاً بما يشبه "العلف الرقمي" الذي يُقدم له باستمرار: محتوى سريع، إثارة متكررة، غضب جاهز، متعة قصيرة، مقارنة دائمة، ورغبة لا تهدأ في الظهور. وكلما ظن أنه يمارس حريته في التصفح والاختيار، كانت الخوارزميات تعيد تشكيل انتباهه، وتعيد تدريب ذائقته، وتعيد توجيه انفعالاته.

وفي هذا السياق.... تكشف شوشانا زوبوف، في كتابها "عصر رأسمالية المراقبة"، كيف تحولت البيانات السلوكية للإنسان إلى مادة خام اقتصادية، تُستخرج وتُحلل وتُستخدم للتنبؤ بالسلوك وتوجيهه[3]، وهذا يعني أن الإنسان المعاصر لم يعد مستهلكاً فقط، بل أصبح هو نفسه مورداً اقتصادياً؛ تُستثمر عاداته، وانتباهه، وقلقه، ورغباته، وحتى لحظات تردده؛ في هذا العالم يصبح الانتباه نفسه ساحة صراع على الشرف، فمن يحتفظ بقدرته على التركيز، والتأمل، والقراءة العميقة، واتخاذ الموقف، إنما يدافع عن آخر قلاع الكينونة في زمن يريد تحويل الإنسان إلى مستهلك للصور ومادة خام للبيانات؛ إذ إن أخطر ما في الاستهلاك الرقمي أنه لا يكتفي بأخذ وقت الإنسان، بل يعيد تشكيل وعيه، إنه لا يبيع له السلع فقط، بل يبيع له نسخة من ذاته: نسخة قلقة، مقارنة، متعجلة، محتاجة دائماً إلى تصديق الآخرين، وهنا يبلغ اغتراب الإنسان المعاصر ذروته: أن يصبح غريباً عن نفسه وهو يظن أنه متصل بالعالم كله.

---

[1] Guy Debord, The Society of the Spectacle, translated by Donald Nicholson-Smith (New York, USA: Zone Books, 1997), pp. 12–24.

[2] Jean Baudrillard: The Consumer Society: Myths and Structures, translated by Chris Turner (London, UK: SAGE Publications, 1998), pp. 25–49.

[3] Shoshana Zuboff, The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power (New York, USA: PublicAffairs, 2019), pp. 8–12 and 67–71.

خاتمة

نحو استعادة شرف الكينونة

وفي نهاية المطاف يمكن القول إن ثنائية "الشرف والعلف" ليست ثنائية أخلاقية بسيطة بين الفضيلة والرذيلة، ولا خطاباً وعظياً ضد الحياة المادية، بل هي أداة فكرية لفهم التحول العميق الذي أصاب الإنسان الحديث حين انتقل من سؤال: **"ماذا ينبغي أن أكون؟" إلى سؤال: "ماذا أستطيع أن أملك؟".**

لقد استطاعت الحضارة المعاصرة أن تمنح الإنسان وفرة غير مسبوقة في الوسائل، لكنها لم تمنحه بالضرورة وضوحاً في الغايات، منحته سرعة هائلة، لكنها لم تجب عن سؤال الاتجاه، زادت قدرته على الوصول إلى الأشياء، لكنها أضعفت أحياناً قدرته على الوصول إلى ذاته، وهنا تكمن المعضلة الكبرى: أن يمتلك الإنسان العالم، ويفقد نفسه، إذ إن استعادة "الشرف" لا تعني العودة إلى بطولات خشنة أو أوهام مثالية، بل تعني إعادة الاعتبار إلى الإنسان بوصفه كائناً أخلاقياً حراً، لا مجرد مستهلك مطيع، تعني أن يسترد شجاعته في السؤال، وكرامته في الاختيار، وقدرته على مقاومة الابتذال، وإيمانه بأن الحياة لا تُقاس بكمية ما نستهلكه، بل بعمق ما نمنحه من معنى.

أما "العلف"، حين يتحول إلى أفق نهائي للحياة، فإنه لا يشبع الإنسان حقاً؛ بل يراكم داخله فراغاً مؤجلاً؛ فالروح لا تُغذيها الوفرة وحدها، والكرامة لا تُشترى، والمعنى لا يُنتج في مصانع الاستهلاك، والإنسان لا يصبح إنساناً كاملاً بمجرد أن تُلبّى حاجاته، بل حين ينهض فوق حاجاته ليصنع موقفاً، ويؤسس قيمة، ويحمل مسؤولية؛ من هنا فإن المساءلة الفكرية لثنائية "الشرف والعلف" هي في جوهرها دعوة إلى يقظة وجودية: أن نعيد بناء الإنسان لا بوصفه رقماً في السوق، ولا زبوناً في المنصة، ولا جسداً يبحث عن الإشباع، بل ذاتاً حرة قادرة على المعنى. فالحضارة التي تُطعم الإنسان وتجرّده من شرفه قد تُبقيه حياً، لكنها لا تجعله جديراً بالحياة.